الأشعرية في ميزان المالكية

بل مالكية عقيدةً وفقهاً وسلوكاً

جمعه

أبو أبي المالكي

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله رب العالمين ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه أجمعين

أما بعد، فهذه وقفات ينبغي علينا معشرَ المنتسبين لمذهب إمام دار الهجرة، والسالكين مسالكَ فقهِهِ القويم، أن نقف عندها وقفةَ متأملٍ فاحصٍ؛ لنميزَ الخبيث من الطيب، علنا نفيءُ إلى الحق في مسألةِ العقيدةِ التي دان بها الإمامُ مالكٌ والسلفُ الصالح رحمهم الله، وننفضَ الغبارَ عمّا أُلصق بهذا المذهبِ من مقالاتِ المتكلمين، والمرجوّ من هذه الكلماتِ اليسيرةِ أن تكون بصيرةً لمن ألقى السمع وهو شهيد، والله المسؤول أن يرينا الحق حقاً ويرزقنا اتباعه، وأن يذبّ عن سنةِ إمامنا تحريفَ الغالين وانتحالَ المبطلين.

المغرب الإسلامي وحفظه لعقيدة السلف والمذهب المالكي

كان المغربُ الإسلاميُّ -الذي هو حاضنةُ المذهبِ المالكي- على عقيدةِ السلفِ أحقاباً، لا يعرف أهلُه مِنَ أهواء أهلِ الكلام شيء.

قال الإمامُ الذهبي:

"وقبلَ ذلك كانت علماءُ المغربِ لا يدخلون في الكلام، بل يُتقنون الفقهَ، أو الحديثَ، أو العربيةَ، ولا يخوضون في المعقولات"[1]

(1) سير أعلام النبلاء 17 / 557

دخول الأشعرية إلى المغرب العربي

قد دخلت الأشعريةُ المغربَ العربيَّ بفعل ثلاثةِ رجال:

الأول: القاضي أبو بكر الباقلاني (تـ 403)

والثاني: وأبو ذر الهروي (تـ 434)

والثالث: المهدي بن تومرت (تـ 524) وهو الذي نشر المذهبَ الأشعريَّ بالقوةِ بعد استيلائه على الحكم.

يقول المؤرِّخُ الفقيهُ المالكيُّ الشيخُ مُبارَك الميلي رحمه الله:

"وكان أهلُ المغرب سلفيِّينَ، حتى رحل ابنُ تومرتَ إلى المَشرقِ، وعزم على إحداثِ انقلابٍ بالمغرب، سياسيٍّ علميٍّ دينيٍّ، فأخذ بطريقة الأشعريِّ ونصرَها، وسمَّى المُرابطينَ السلفيينَ مجسمين، وتَمَّ انقلابُه على يدِ عبدِ المُؤمن، فتَمَّ انتصارُ الأشاعرةِ بالمغرب، واحتجبتِ السلفيةُ بسُقوطِ دولةِ صنهاجة، فلم يَنصرْها بعدَهم إلا أفرادٌ قليلون من أهل العلم في أزمنةٍ مختلفة."[2]

(2) تاريخ الجزائر في القديم والحديث، لمبارك الميلي 711

نشأة وتطور المذهب الأشعري

الأشعرية فِرقةٌ كلاميةٌ، وعلمُ الكلامِ: هو علمٌ يقوم على إثباتِ العقائدِ عن طريقِ العقل.

وقد تأسست هذه الفرقةُ على يد أبي الحسن الأشعري (تـــ 324) وكان -رحمه الله قد مرَّ بأطوارٍ ثلاثة:

الطور الأول فقد كان فيه مُعتزليا، تأثُّراً بزوجِ أمه أبي علي الجُبائي، رأس المعتزلة آنذاك.

الطور الثاني ترك الأشعريُّ الاعتزالَ إلى مذهبِ عبد الله بن سعيد بن كُلاَّب، مع شيء من الاجتهاد الخاص له، وعلى هذا الطورِ أشعريةُ اليوم

الطور الثالث ترك الأشعريُّ مذهبَ ابنِ كُلاَّبٍ وما صاحبَه من اجتهادٍ خاصٍّ له فيه، وصار إلى قولِ أحمدَ بنِ حنبلٍ، وهو قولُ أهلِ السُنة والجماعة، وألَّف في هذا كُتُباً تنضحُ بالعقيدة السلفية الصافية، وهي اليوم مطبوعة متداولة: الإبانة، واللُّمَع، ومقالات الإسلاميين، ورسالة إلى أهل الثغر.

وكاد المذهبُ الأشعريُّ في طوره الكُلابيِّ ينقرضُ لولا أن نشط له الجويني، ثم خلفه على هذا تلميذه الغزالي، حتى كان عصرُ الفخر الرازي الذي أصَّل له، وقعَّد، وناظر، ونافح، واستنجد بأقوال الفلاسفة، وأتى بما لم يخطر للأشعريِّ نفسِه فيه على بال، وبثَّ هذا في تفسيره، وفي غيره من كتبه كأساس التقديس

تمسح الأشاعرة بأئمة المذاهب لترويج البدع

وكان من أسبابِ رواجِ المذهب الأشعريِّ، تمسُّحُ أهلِه بأئمة المذاهب الأربعة، حتى تولَّد لدى كثير من عامة الناسِ وخاصتهم اعتقادٌ بتلازمِ الفقهِ المالكي أو الشافعي والعَقدِ الأشعريِّ، والفقه الحنفيِّ والعَقدِ الماتريدي، والفقهِ الحنبليِّ وعَقْد السلف، وزادَ الجميعُ للسلوكِ التصوف، وليس ذلك كذلك.

فإنَّ أئمةَ المذاهبِ الأربعةِ وكذا تلاميذَهم لم يختلفوا في العقائد ولا أصول السلوك، وإنما اختلفوا في الفروع، والاختلاف في الفروع لا يوجِبُ تعدُّدَ المِللِ كما قال القرطبي فأنتَ كُلَّمَا أنكرتَ على أشعريٍّ تحريفَه، أو على صوفيٍّ تخريفَه؛ استعاذَ بمذهبِ مالكٍ، فقال للدهماءِ والمساكين: هذا رجلٌ يُريدُ إماتةَ مذهبِ مالك الذي هو هُويةُ أهلِ هذا البلد، وهذه حِيلةُ كلِّ مُبطِلٍ في كل زمان ومكان.

ولَمَّا ابتُلِيَ الإمامُ المالكيُّ المُجددُ عبد الحميد بن باديس رحمه الله -بمثل هذا- قال: "ثم يقولُ (نحن مالكيون!!) ومَن يُنازِعُ في هذا؟ ومَا يُقْرِئُ

علماءُ الجمعيةِ إلاَّ فقهَ مالك، وياليتَ الناسَ كانوا مالكيةً حقيقةً؛ إذاً لطرحوا كلَّ بدعةٍ وضلالةٍ، فقد كان مالكٌ كثيراً ما يُنشِد:

وخيرُ أمورِ الدِّينِ ما كان سُنةً ... وشرُّ الأمورِ المُحدَثاتُ البَدائِعُ(3)

(3) آثـــار ابن باديس 3 / 292

كتمان الأشاعرة مقالاتهم وغموضها

ومن أعظم أسبابِ الاغترار بهذا المذهبِ، غُموضُه في كثيرٍ من المسائلِ، غموضاً ينطوي على مَقالةٍ بائسة، يُخْشَى من ظهُورِها الانفضاضُ والاعتراضُ، فالظاهرُ للناسِ من الأشعريةِ -مثلاً- ذمُّ الجَبرية وتكفيرُهم لأنَّ للعبدِ كسْباً!! وهم قائلون بالجبر الباطن. والظاهرُ للناسِ منهم أنَّ القرآنَ كلامُ اللهِ وأنَّ القائلَ بخَلقِه كافر!! وهم متفقون مع المعتزلة والجهمية على أن القرآن الذي بين أيدينا مخلوق، وأنه لم يُسمع من الله قرآن ولا غيره ... إلى آخر ذلك من الأبواب التي سلكوا فيها سبيل التخفِّي والتناقُضِ والمراوغةِ، فلا هم بصدْقِ وصوابِ أهلِ الحديث، ولا بجُرأةِ وصراحةِ أهل الاعتزال، ولذا قال الإمام ابنُ قدامة المقدسي: "ولا نعرفُ في أهلِ البدعِ طائفةً يكتمون مقالاتِهم ولا يتجاسرون على إظهارها إلا الزنادقة والأشعرية"[4]

وشيءٌ آخرُ، إذا قال الزبيديُّ في الإتحاف، أو الشهرزوري في الملل والنحل، أو البغدادي في أصول الدين أو الفَرقُ بين الفِرق، أو غيرُهم

(4) المناظرة في القرآن ص 35

في غيرِها: وذهب أهل السنة والجماعة إلى كذا وكذا، فلْيُعْلَمْ أنهم يريدون بأهل السُّنةِ الأشاعرة

مخالفة الأشاعرة لأهل السنة في أولى واجبات العبد

مُعتمَدُ الأشاعرة أنَّ القصدَ إلى النَّظَرِ هو أولُ واجِبٍ على العبد، وليس يصحُّ إيمانُ مَن نطق بالشهادتين قبل أن يُطلِق نظرَه في الكون ليستدل بذلك على وجود الله

أما أهلُ السنة فلا يرون ذلك، بل النطق بالشهادتين أولُ ما يجب على العبد، لحديثِ مُعاذٍ رضي الله عنه لَمَّا أرسله النبي صلى الله عليه وسلم إلى اليمن مُعلِّماً، فقال: «**إنك تأتي قوما أهل كتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله** »

وقد روى سحنون عن ابن القاسم عن مالك: "قلتُ كيف الإسلامُ الذي إذا أجابت إليه الجاريةُ حلَّ وطؤها والصلاةُ عليها؟ فقال مالك: إذا شهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله؛ فقد أجابت"(5)

(5) المدونة 1 / 179

وقال الشافعي: سُئل مالكٌ عن الكلام والتوحيد، فقال: "مُحال أن يُظَن بالنبي ﷺ أنه علَّم أمتَه الاستنجاءَ ولـــم يعلمْهم التوحيد، والتوحيد ما قاله النبي ﷺ : «**أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله**» فما عُصِمَ به المالُ والدمُ حقيقةُ التوحيد" (6)

(6) ذم الكلام للهروي 210

الأشاعرة وظواهر الكتاب والسنة

درج مُتكلِّمُو الأشاعرةِ على اعتبار ظواهرِ نصوصِ الكتابِ والسنةِ أصلاً من أصول الكفر، قال أحمد الساوي في حاشيته على تفسير الجلالين: "الأخذ بظواهر الكتاب والسنة من أصول الكفر" (7)

ويقول الإمام مالك ﵀ في آيات وأحاديثِ الصفات: "أمروها كما جاءت بلا كيف" (8)، هذه رواية الوليد بن مسلم.

وفي رواية ابن عُيينة ﵀ قال: "سألتُ مالكاً عن هذه الأحاديث التي في الرؤية والصفات، فقال: أمِرُّوها على ما جاءت ولا تفسروها" (9)

(7) حاشيته على تفسير الجلالين 10/3

(8) التمهيد لابن عبد البر 5 / 160

(9) عقيدة السلف للصابوني 69

المقولة الفاجرة للأشاعرة

ظنَّ الأشاعرةُ أنــــهم بتقحُّمهم بابَ الأسماءِ والصفاتِ تحريفاً قد صاروا أعلمَ من السلف وأحكمَ مذهباً، وأنَّ السلفَ قد آثروا السلامةَ فتوقَّفُوا في ذلك، حتى اشتهرت عنهم المقولة الفاجرة: "طريقة السلف أسلم، وطريقة الخَلَف أعلم وأحكم" صرَّح بذلك الجويني والرازي

ويقول ابن أبي زيد القيرواني رحمه الله فيما نقله من عقيدة مالك وأئمة السلف رحمهم الله : "التسليمُ والانقيادُ للسُنن، لا تُعَارضُ برأي، ولا تُدافَع بقياس، وما تأوله منها السلف الصالح تأولناه، وما عملوا به عملناه، وما تركوه تركناه، ويسعنا أن نمسك عما أمسكوا، ويلزمنا أن نتبعهم فيما بينوا، وأن نقتدي بهم فيما استنبطوا، وأن لا نخرج عن جماعتهم فيما اختلفوا فيه، أو في تأويله" (10)

وقال أبو طالب الـــمكي: "كان مالكٌ أبعدَ الناسِ من مذاهب المتكلمين... وألزمهم لسُنةِ السالفين من الصحابةِ والتابعين" (11)

(10) الجامع لابن أبي زيد 118

(11) المدارك للقاضي عياض 1 / 87

ضلال الفرق الكلامية إعتمادهم على الرجال في الإعتقاد

الانتسابُ الأوليُّ إلى الرجال في مسائلِ الاعتقادِ ضَلالٌ مبين، وقد سلكتِ الفِرَقُ الكلاميةُ في إثبات العقائدِ مسلكاً يقضي على جميعها بالبطلان، فإنهم يقولون: كفى بالعقلِ دليلاً على العَقدِ الصحيح!! لكن السؤال: عقلُ مَن؟ آلأشعري؟ أم الماتريدي؟ أم ابن كلاب؟

كلٌّ له قولٌ ومذهب، وكلُّهم يزعم أن العقل يقتضيه، وما سواه باطل، فتعددت بذلك الأديان

عن عبد الرحمن بن مهدي رحمه الله قال: "دخلت على مالك وعنده رجل يسأله، فقال: لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد، لعن الله عمرو بن عبيد؛ فإنه ابتدع هذه البدعة من الكلام، ولو كان الكلام علما لتكلم فيه الصحابة والتابعون، كما تكلموا في الأحكام والشرائع"[12]

(12) شرح السنة للبغوي 1 / 217

وأُخبر مالكٌ أنه قيل لرجل عند الموت: على أي دين تـــموت؟ فقال: "على دين أبي عمارة" -كأنه رجل كان يتولاه من بعض أهل الأهواء- فقال الإمام مالك ﵀ : "يدع المشئوم دينَ أبي القاسم ﷺ ويـــموت على دين أبي عمارة!!؟ "[13]

(13) الإبانة لابن بطة 239

مخالفة الأشاعرة لمنهج الإمام مالك رحمه الله

الاشاعرةُ كما سبق فِرقةٌ كلاميةٌ، أي: تتخِذُ من علم الكلام سبيلاً لإثبات العقائد، ولذلك إذا ترجموا لأعلامهم الذين صنفوا في العقائد وغيرها من العلوم قالوا: الفقيهُ المُتكلمُ الأصولي المفسر...الخ

فهل كان مالك رحمه الله يرتضي علم الكلام؟

قال مالك: "مَن طلب الدين بالكلام تزندق" (14)

وقال رحمه الله :"لو كان الكلام علما لتكلم فيه الصحابة والتابعون كما تكلموا في الاحكام والشرائع، ولكنه باطل يدل على باطل" (15)

وقال أبو طالب المكي رحمه الله : "كان مالكٌ أبعدَ الناسِ من مذاهب المتكلمين، وأشدهم نقضا للعراقيين " (16)

وقال مالك رحمه الله : "الكلامُ في الدين أكرهه، و لم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه، نحو الكلام في رأي جهم، والقدر، وكل ما أشبه ذلك" (17)

(14) ذم الكلام للهروي 874

(15) شرح السنة للبغوي 1 / 217

(16) المدارك للقاضي عياض 1 / 87

(17) جامع البيان لابن عبد البر 2 / 116

